﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة: 40-41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

بَعد أَن وَعَظَ اللّٰه تعالى المُشركِينَ، وتخلَّلَ ذلك ذكرُ قصَّةِ خلقِ آدَمَ عليه السلام وتوابع ذلكَ، انتقلَ الكلامُ إلى وعظ الكافرين مِن أهل الكتاب، وتَوَجَّهَ الخطابُ إلى بني إسرائيلَ لكونهم أشهرَ الأمم المتديِّنَةِ ذاتِ الكتاب الشَّهيرِ والشَّريعةِ الواسعة [1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿نِعۡمَتِيَ﴾: النُّون والعين والميم تدُلُّ اشتقاقاتُهَا على ترفُّهٍ وطِيب عَيشٍ وصلاحٍ[2]، والنِّعمَةُ بالكَسرِ: الحالَةُ الحَسَنَةُ، وبناؤُها الّتي يَكونُ عليها الإنسانُ كالجِلسَةِ، وتُقالُ للجِنسِ الصَّادِقِ على القليلِ والكثيرِ[3].

ومنهُ النَّعمَةُ -بالفتحِ-: التَّنَعُّمُ؛ وهو ما يترفَّهُ به الإنسَان مِن مَأكلٍ أَو مَشرب أَو مَلبس-[4]، وبناؤُها بناءُ المَرَّةِ مِنَ الفعلِ كالضَّربَةِ، واختِيرَ تَفسيرُ النَّعمَةِ بالشَّيءِ المُنعَمِ به؛ لأَنَّهُ أنسَبُ للتَّركِ، وهي كثيرًا ما تكونُ بهذا المعنى [5].

ونِعَمُ اللّٰه تعالى على بني إسرائيل المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ هي: "اصطفاؤه مِنهُمُ الرُّسُلَ، وإنزالُه عليهِمُ الكتبَ، واستنقاذُه إيَّاهم ممَّا كانوا فيه مِنَ البلاء والضَّرَّاء مِن فرعون وقومِه، إلى التَّمكين لهم في الأرض، وتفجيرِ عيون الماء مِنَ الحجر، وإطعام المنّ والسَّلوى"[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/447.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نعم).
(3) الرّاغب، المفردات: (نعم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (نعم).
(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نعم).
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 13/122.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/555.

2) ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾: أصلُ العهد: حِفظُ الشَّيء ومُراعاتُه حالًا بعدَ حال[1].

وهذه المراعاة حالًا بعد حالٍ هي التَّعاهُدُ، وهي الّتي عبَّر عنها الخليلُ بقوله: "الاحتفاظُ بالشَّيء وإحداثُ العَهْدِ به" [2].

ومِن هذا البابِ: العهدُ الّذي هو الوصِيَّةُ[3]؛ لكونها مِمَّا تُحفَظُ وتُراعَى حتَّى تَنفُذَ، وللعَهد معانٍ كثيرةٌ جدًّا، مِنها: الأمانُ، واليَمِين، والذِّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنزِل[4]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور.

والعهد المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ هو ما عَهِدَهُ إليهم مِنَ الإيمان به وبكتبه ورسُلِه وإقامةِ شَرعه، والعهدُ في قوله سبحانه: ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ هو الجزاءُ والثَّواب على ذلك[5].

3) ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾: فعلُ أمرٍ مِنَ الرَّهبةِ مُسند إلى واو الجماعةِ، ومادَّتُهُ الرَّاء والهاء والبَاء تدُلُّ أكثر تصاريفها على الخَوف[6]، ومِنه الرَّاهِبُ؛ وهو المتعبِّدُ في الصَّومعَةِ[7]؛ فإنَّ الّذي حَمَلَهُ على التَّعبُّدِ خَوفُهُ.

وَحَدَّ الرَّهبةَ الرَّاغِبُ بِقَوْلِه: "مَخَافةٌ مع تَحرُّزٍ واضطِرابٍ" [8]، وقال ابن القيِّم في تعريفِها: "هي الإمعانُ في الهَرَبِ مِنَ المكروه"[9].

والرَّهبةُ من اللّهِ تعالى المأمورُ بها في قوله سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، هي فِرَارُ قَلبِ العبدِ إلى اللّه تعالى ذُعرًا وفزعًا مع عَمَلِ ما يُرضيه.

4) ﴿مُصَدِّقًا﴾: الصَّاد والدَّال والقاف تَدُلُّ تصاريفُها على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا كان أو غيرَه، ومنه قولُهم: هذا شيءٌ صَدْقٌ، أي: صُلْبٌ، ومنه سُمِّيَ الصِّدقُ -نقيضُ الكذِبِ- بذلك؛ لقوَّتِهِ في نفسِه[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عهد)، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (عهد).
(2) الخليل، العين: (عهد).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (عهد).
(4) القاسم بن سلاَّم، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (عهد).
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهب).
(7) ابن سِيده، المحكم: (رهب).
(8) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(9) ابن القيّم، مدارج السالكين: 1/508.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).

والصِّدْقُ: هو إخبارٌ عَنِ المُخبَر به على ما هو عليه في الواقع، ولا يكون محمودًا شَرْعًا إلَّا مع العلمِ بأنَّهُ كذلك[1].

والتَّصديقُ بزنةِ التَّفعيل، و (التَّفعيلُ) يأتي لإرادةِ النِّسبة، كما في التَّصديق؛ فإنَّهُ النِّسبةُ إلى الصِّدْقِ[2].

ومعنى قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ مُوافقًا له[3]؛ لأنّه إذا كان موافقًا له فإنَّهُ ينسِبُهُ إلى الصِّدْقِ.

5) ﴿ثَمَنًا﴾: الثَّاء والميمُ والنُّون تدُلُّ أكثَرُ تصاريفِهِ على مَعنَى عِوَضِ ما يُباعُ[4]، وثمَنُ كُلِّ شيءٍ: قِيمَتُه[5].

والثَّمنُ القليلُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الدُّنيا بحذافيرها[6]؛ وجُعِلَ الثَّمنُ مُشتَرًى كسائِرِ السِّلعِ؛ لأنَّ الثَّمن والمُثمَنَ كلاهُما مَبيعٌ[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا ذريَّةَ يعقوبَ! اذكُروا نعمي المتكاثرةَ عليكم، وأدُّوا عَهدي إليكُم أداءً وافيًا تامًّا؛ بأن تُؤمنوا بكتُبي ورُسُلي وتعمَلوا بما شَرَعْتُ لكُم، فإنْ فعلتُم ذلك أتممتُ لكُم ما وعدتُكم مِنَ الجزاء والثَّوابِ بأن أَرضى عنكُم وأُدخِلَكم الجنَّةَ، ولْتَفرَّ قلوبُكم إليَّ وحدي ذُعرًا وفزعًا مع العمل بما أرضَى به عليكُم، وآمِنوا بالقرآن الكريم الّذي أنزلتُهُ على النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ موافقًا لِمَا تعلمونَهُ مِن صحيحِ ما عندَكُم، ولا تكونوا أوَّلَ مَن يَكفُرُ به مِن أهلِ الكتاب، ولا تَستَبدِلوا بآياتي شيئًا مِن حُطام الدُّنيا، واتَّقوني وحدي بفِعلِ ما أَمرتُ به واجتنابِ ما نهيتُ عَنه[8].

---

(1) أبو البقاء الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 556.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثمن).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (ثمن).
(6) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/98.
(7) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (ثمن).
(8) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/83، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/242، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ النِّداءِ في ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الـحـثُّ عـلى امتثالِ الأوامِـرِ الـشَّـرعـيَّـةِ وقَبُولِها

النِّداءُ بـ (يا) التي هي في الأصلِ للبَعيدِ، والبُعدُ هنا معنويٌّ لبيانِ عظمَةِ المُنادي [1]ﷻ، ومقصودُ النِّداء في قولِه سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حثُّ المُخاطبين على سماع ما يَرِدُ عليهم مِنَ الأوامرِ والنَّواهي وتحريكُ هِمَمِهم لقبولِه.

سِرُّ النِّداءِ بـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دُونَ (يا بَنِي يَعقُوبَ):

وَعـظُ الأبـنـاءِ بـتـذكـيرِهـم بشَرَفِ الآباء

وَقَعَ نداؤُهم بـ (بني إسرائيلَ) -وإسرَائِيلُ هو يعقُوبُ عليه السلام-؛ تذكيرًا لهم بمقامِ يعقُوبَ وشرفِهِ، وأنَّه يَنبَغي لهم أن يَقتَدوا به في الشَّرَف[2].

وعُدِلَ عَن نِدائِهم بـ (بني يعقوب) إلى (بني إسرَائِيل)؛ لأنَّ معنى (إسرَائِيل) بالعبريَّةِ: صفوةُ اللهِ أو عبدُ اللهِ[3]، وهذا أَدعى لتَحَرِّيهم الطّاعة؛ فإنَّ قول القائل: يا ابنَ الصَّالحِ أطِع اللهَ تعالى، أبلغُ في حثِّ المأمور مِن قوله: يا ابنَ فلانٍ أطِع اللهَ؛ "لأنَّ الطَّبائع تَميل إلى اقتفاء أثَرِ الآباء -وإنْ لم يَكُن محمودًا- فكيفَ إذا كان؟!"[4].

غرضُ الأَمرِ بتَذَكُّرِ النِّعمِ:

تَـذَكُّـرُ النِّـعـمِ طَريـقٌ لتَحقيقِ وُجوبِ شُكرِها

الأَمرُ بالتَّذكُّر في قوله سبحانه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ ليس المرادُ مجرَّدَ التَّذكُّرِ، وإنَّما المرادُ به مع ذلك: لازِمُهُ؛ وهو القيامُ بشُكرِها[5] بالذِّكرِ باللِّسانِ والذِّكرِ بالجَنانِ[6]، فأمرَهم اللهُ تعالى أن يَذكُروها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/206.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/206-207.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/244، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/298-299.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/452.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/108.

لِيَدعوهم ذِكرُهم لها إلى طاعته والإيمان برسُلِه، والتَّحذير مِن عقوبتِه بما عاقب به من لم يُؤمن برَسُوله ولم يَنْقَد لدينه وطاعته، فكانت نعمتُه على آبائهم نعمةً منه عليهم تَستَدعي منهُم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشُّكر عليها كُفرَكم برسولي، وتكذيبَكم له، ومعاداتَكم إيَّاه؟[1]، فيكون كنايةً لا مجازًا مُرسلًا بعلاقة الملزوميَّة؛ لأنَّ التَّذكُّرَ مطلوبٌ مع الشُّكرِ، وهذا أنسبُ لحملِه على الكنايَة؛ لأنَّ المعنى الأصليَّ تَجُوزُ إرادَتُهُ، بخلاف ما لو حُمِلَ على المجاز.

وفي الأمر بتذُّكرِ النِّعَم إشعارٌ بأنَّهم قد نَسُوها بالكُلِّيَّةِ، ولم يُجرُوها على أذهانِهم، لا أنَّهم قصَّروا في شُكرِها فحسب[2].

نُكتَةُ الإضافة في قولِه ﴿نِعْمَتِيَ﴾:

إضافَةُ النِّعمة إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللهِ ﷻ؛ تعظيمًا لها وتشريفًا[3]، فإنَّ النِّعمَةَ تَعظُمُ بحسب المُنعِم بها، فالنِّعمة مِنَ العظِيم عظيمةٌ.

فائِدَةُ تَقييدِ النِّعمَةِ بالمُخاطَبِينَ في قولِه ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

قُيِّدَتِ النِّعمةُ بالمخاطَبِينَ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّهُ أدعى لتحقيق المقصودِ مِنَ الأمر بالتَّذكُّر وهو الشُّكرُ؛ فإنَّ الإنسانَ مِن طَبعِه الغَيرةُ والحسَدُ، فإذا نظرَ إلى ما أنعم اللهُ تعالى على غيرِه؛ حملتْهُ الغَيرةُ والحسد على التَّسخُّط وكفر النِّعمة، وإذا نظَر إلى ما أنعم اللهُ ﷻ عليه؛ حمَلَهُ ذلك على الشُّكرِ والرِّضَا[4]، ولأنَّ تذكير الحَسُود بما عِندَهُ مِن النِّعَم إشغالٌ له بها، وصرفٌ له عَنِ الحسدِ النَّاشئِ عَنِ الاشتغالِ بما أنعَمَ اللهُ تعالى على غَيرِه.

تهذيبُ نفوسِ المُخاطبين بتذكيرِهم بالنِّعمِ يصرفُ الحَسَدَ

وفي هذا تعريضٌ لليَهودِ بأنَّهم حاسدُون للعَربِ؛ إذ جَعَلَ اللهُ تعالى خَتْمَ النُّبُوَّةِ فيهم[5].

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/427.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/75.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/452.

نُكتَةُ الإضافَةِ في قوله ﴿بِعَهْدِيٓ﴾:

إضافةُ العَهدِ إلى الضَّمير العائد إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ﴾ يُرادُ بها: تعظيمُ المضافِ -وهو العهدُ- وتشريفُهُ، وذلك دالٌّ على تعظيمِ الأمر بالوفاءِ بِهِ، والتَّحذيرِ مِنْ نقضِه.

سِرُّ تَقديمِ المَفعُولِ ﴿وَإِيَّـٰيَ﴾:

وُجُـــــوبُ تَخصِيصِ اللهِ تعالى بالرَّهبَةِ الكامِلَة

(إيَّايَ) مِن قول الله ﷻ: ﴿وَإِيَّـٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ مفعولٌ بِهِ مقدَّمٌ لـ (ارْهَبُوا) مقدَّرًا لا لـ ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ المذكور؛ لأنَّه استوفَى مفعولَهُ وهو الياءُ المقدَّرة[1].

وتقديمُهُ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ فالرَّهبَةُ الحقَّةُ لا تكونُ إلَّا مِنَ الله سبحانه.

وأُكِّدَ هذا التَّخصيص بثلاثة أوجهٍ[2]:

أحدها: تَكرارُ فِعلِ أمر الرَّهبة مرَّتين؛ أوَّلهما: ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾، والآخر: (ارْهَبُوا) المقدَّرُ النَّاصِبُ للضَّمير المنفصل.

ثانيها: تَكرار المفعول به مرَّتين أيضًا؛ أوَّلهما: (إيَّايَ)، والآخر: الياءُ المحذوفةُ من ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾؛ فإنَّ التَّقدير: فارهَبوني.

ثالثُها: الفاء الجَزائيَّة في قوله: ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ دالَّةٌ على تضمُّن الكلام معنَى الشَّرط، والتَّقدير: إن كنتُم رَاهِبِينَ شيئًا فارهبُونِي.

نُكتَةُ حَذفِ المَفعولِ مِن ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾:

جمالُ التَّناسُبِ الصَّوتيِّ غرضٌ بيانيٌّ

مفعولُ ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ محذوف، والتَّقديرُ: فارهَبوني، ولحذفِهِ نُكتَتَان:

إحداهما: اكتفاءً بذِكرِه في ﴿وَإِيَّـٰيَ﴾ مع العامل المحذوف.

والأخرى: تحسينُ الفواصلِ[3]؛ فإنَّ ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ أنسبُ للفَواصِل

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/95.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/404.

الّتي قبلها وبعدها مِن إثباتِ الياء (فارهبونِي)، وهو تحسينٌ لفظيٌّ جميلٌ تابعٌ لجمالِ المعنى.

عَطفُ الخاصِّ على العامِّ في قولِهِ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾:

عَظَمَةُ القرآنِ الكريم بتخصيصِه بالذِّكرِ

الأمر بالإيمان بالقرآنِ بعدَ قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾ هو من باب الإطنابِ بعَطفِ الخاصِّ على العامِّ[1]؛ لأنَّ الوفاءَ بالعهدِ: يدخُلُ فيه الإيمانُ بالكتبِ المُنَزَّلَةِ، ومنها القرآنُ، ونكتةُ هذا العطفِ: التَّنويهُ بشأنِ القرآن الكريم وعظَمَتِهِ بذكرِهِ مرَّتين؛ إحداهما: مُندَرِجًا تحت لفظٍ عامٍّ، والأخرى: تخصيصُه بأمرٍ مُفرَدًا.

سِرُّ العُدولِ عَنِ التَّعبيرِ بالقُرآنِ إلى التَّعبيرِ بـ ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾:

بيانُ علَّةِ وُجُوبِ الإيمانِ بالقرآنِ، وهي ربانيَّتُه

المُراد بـ ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ القرآن الكريمُ، وعُدِلَ عَنِ التَّصريح باسمه إلى ذِكرِهِ بالموصول وصِلَتِهِ؛ لنُكتَتَين:

إحداهما: الإيماءُ إلى تَعليل الأمر بالإيمان به؛ لأنَّه مُنزَلٌ مِنَ اللهِ تعالى، والرُّسلُ قد أَوصَوا بالإيمان بكُلِّ كتابٍ يَثبُتُ تنزيلُهُ مِنَ اللهِ سبحانه[2].

الأخرى: تعظيمُ شأنِهِ؛ إذ كان تنزيلًا مِنَ اللهِ تعالى، والعظيمُ لا يُنَزِّلُ إلَّا عظيمًا[3].

وَجهُ التَّغايُرِ بين الجَمعِ في ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ والإفرادِ في ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾:

بيانُ معنى الجَمْعِ بتقديرِ المحذوفِ من اللَّفظ

غُويرَ بينَ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ والإفرادِ في قوله سبحانه: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾، ومُقتضى الظَّاهر: ولا تكُونوا أوَّل الكافرينَ به؛ لأنّ ﴿كَافِرٍۭ﴾ صفة لموصوف محذوفٍ، تقديره: أوَّل فريقٍ أو حزبٍ أو قبيلٍ كافرٍ بِهِ[4]، فهو مفرَدٌ في اللّفظِ، جمعٌ في المعنى[5].

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 2/455.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/458.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/246.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/436.
(5) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/88، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/149.

والأَوَّليَّةُ ههنا إضافيَّةٌ، والمرادُ: ولا تكونوا أوَّلَ فريقٍ كافرٍ به مِن أهل الكتاب؛ لأنَّ كُفَّار قُريش كَفَروا به قبلُ[1].

غرضُ النَّهي في قولِه: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦۖ﴾:

النَّهيُ عَن أَوَّليَّة الكُفر كِنايَةٌ عَنِ طلبِ المُسارَعةِ إلى الإيمان

ليس المرادُ بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦۖ﴾ النَّهيَ عَنِ الكُفر مقيَّدًا بالأوَّليَّةِ فحسبُ، بحيث يُؤذنُ لَهُم في الكُفرِ اقتداءً بغيرِهم! وإنَّما كُنِّيَ بهذا النَّهي عَنِ الأمرِ؛ لتَغليظ تحذيرهم وتأكيده من الكُفر، والتَّقدير: وكونوا أوَّلَ المؤمنين بهِ، والمرادُ: الأمرُ بالمُسارَعَة إلى الإيمان.

والنَّهي مُستعمَلٌ أيضًا في معنى التَّوبيخِ على تأخُّرهم في اتِّباع دعوة الإسلام[2].

ويَحتَمِلُ أن يكون ذكرُ الأوليَّةِ مِن باب التَّنبيه على ما يجبُ أن يكونوا عليه، وذلك أنَّ اليهودَ لـمَّا علمُوا بحلول زمنِ بعثة نَبِيٍّ، قالوا: إنَّا نكون أوَّلَ من يتَّبِعُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]، فلـمَّا بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ وكفَروا به، قيلَ لَهُم: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦۖ﴾[3].

تخصيصُ ذكرِ الأوَّلِ دُون غَيرِه.

قُبحُ البَدايات يُنبئ بقُبحِ النِّهايات

اقتصرَتِ الآيةُ الكريمةُ على ذِكرِ أوَّل مَن سنَّ الكفرَ بالنَّبيِّ ﷺ وبدأ بِه مِن بني إسرائيل، والمَعنى: ولا تكونوا أوَّلَ كافرٍ به، وآخِرَ كافرٍ بِهِ كذلك، فَحُذِفَ المعطوفُ؛ لدلالة قوَّة الكلامِ مِن جِهَةِ أنَّ أوَّلَ الكُفرِ وآخرَهُ سواءٌ، وخُصَّت الأوَّليَّةُ مِن باب الإيجازِ اكتفاءً[4]

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/134.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/460.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/247.
(4) الاكتفاءُ: أن يقتضِي المَقامُ ذكرَ شيئين بينَهما تلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفى بأحدهما عن الآخَرِ، ويُخصُّ بالارتباطِ العطفِيِّ غالبًا.
يُنظر: السُّيوطي، معترك الأقران: 1/320.

بذِكرِها؛ لِقُبحِهَا بالابتِداء[1]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ البدايات القبيحةَ تُنبئُ بقُبحِ النِّهايات.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالمَجازِ في (الاشتِراءِ):

بَـيَـانُ حِـرصِ الـيَـهـودِ عـلى الـثَّـمَـنِ القليلِ وزُهـدِهِـم في آيات الله تعالى

التَّعبير بالاشتِراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجِهُ مسلَكان:

أحدهما: أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا بعلاقة المَلزُومِيَّةِ؛ بحيث أُطلِقَ المَلزُومُ وهو الاشتِراءُ، وأُريدَ لازِمُهُ، وفي تَعيينِ اللَّازِمِ وجهانِ؛ إذ إنَّ مِن لازِمِ الاشتِراءِ الاستِبدالَ، والحرصَ على شيءٍ، والزُّهدَ في ضدِّه.

فعلى اللَّازِمِ الأوَّلِ -وهو الاستِبدالُ-؛ يكون المعنى: النَّهي عَنِ استبدال الثَّمن القليل بآيات الله تعالى.

وعلى اللَّازِمِ الآخر؛ يكون المعنى: النَّهي عَنِ الحِرص على الثَّمن القليل، والزُّهد في آيات الله تعالى.

والمَسلَكُ الآخَرُ: أن يكون ذلك مَجازًا بالاستِعارة؛ حيثُ استُعير الاشتراءُ للإعراض عمَّا في حيازَةِ المرءِ طالبًا تحصيلَ غيرِه، وهذا في الأصل: يكونُ في المعاني والأعيان.

ويَحتَمِلُ إجراءُ الاستعارة في كلمة (الآيات)؛ بأن شُبِّهت بالمال، بجامع وقوع المُعَاوَضَةِ في كُلٍّ، فحُذِف المشبَّهُ به ورُمِز لَهُ بشيءٍ مِن لوازمِه -وهو ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾ - على سبيل الاستعارة المكنيَّة الأصليَّة.

وجَعْلُ الثَّمَنِ مُشترًى لا مُشترًى به إشارةٌ إلى كونه "كالثَّمَنِ في الاسترذال والامتهان، ففيهِ تقريعٌ وتجهيلٌ قَويٌّ؛ حيث إنَّهم قَلَبوا القضيَّة وجعلُوا المقصودَ آلَةً والآلَةَ مَقصُودَةً"[2].

سِرُّ جمعِ الآياتِ وإضافَتِها:

جمعُ الآيات في قوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ، وازدادَ تعظيمُها وتشريفُها

(1) الزَّركشّي، البرهان: 3/121.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/247.

بالإضافة إلى الضَّمير العائدِ إلى الله تعالى؛ فإنَّ الإضافةَ ههنا مفيدَةٌ تشريفَ المُضاف[1].

نُكتَةُ إفرادِ الثَّمَنِ وتَنكيرِه:

دَناءَةُ اليهودِ في حِرصِهِم على الثَّمَنِ الحَقيرِ قَدْرًا ووَصفًا

أُفرِدَ الثَّمن في قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تحقيرًا له، وازدَادَ تحقيرًا بوجهين آخرَين:

أحدهما: تنكيرُهُ؛ فإنَّ التَّنكيرَ ههنا دالٌّ على حقارةِ المُنَكَّر.

والآخر: وصف الثَّمَنِ بالقِلَّة، فيكون الثَّمَنُ حقيرًا في قَدْرِهِ ووَصفِه[2].

فائدةُ تَقديمِ المَفعولِ ﴿وَإِيَّىَ﴾:

وُجـــــوبُ تَخصِيصِ اللهِ تعالى بالتَّقوى الحَقَّة

(إيَّايَ) من قول الله سبحانه: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ مفعولٌ بِهِ مقدَّمٌ لـ (اتَّقوا) محذوفًا، والتقدير: وإيَّايَ اتَّقوا فاتَّقون، لا مفعولًا لـ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ المُصرَّحِ بهِ؛ لأنَّ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ قد استوفَى مفعولَهُ، وهو الياءُ المحذوفة[3].

وتقديمُ المفعول به ﴿وَإِيَّىَ﴾ لإرادة القصرِ؛ فالّذي يُتَّقَى حقَّ التَّقوى هو الله ﷻ وحدَهُ دون ما سواه.

وتقَوَّى هذا القَصرُ بأوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدها: تَكرَار الأمر بالتَّقوى مرَّتين؛ الأوَّلُ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، والآخر: فعلُ (اتَّقوا) المحذوفُ الّذي نصبَ المفعولَ المقدَّمَ (إيَّايَ).

ثانيها: تَكرار المفعولِ به مرَّتين كذلك؛ الأوَّلُ منهما: (إيَّايَ)، والآخَرُ: الياءُ المحذوفةُ مِن ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ فإنَّ التَّقدير: فَاتَّقُوني.

ثالثُها: فاءُ الجزاءِ في قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ فإنَّها مُفيدَةٌ تضمُّنَ الكلام معنَى الشَّرطِ، وتقدير الكلام: (إن كان هناك مَن

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.

(3) السمين، الدر المصون: 1/314، محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/91.

يُتَّقَى عذابُه، ومَن يَجِبُ أن تكونَ وقاية بينَكم وبينه، فاتَّقونِي أنا وحدي)[1].

سَبَبُ حَذفِ المَفعولِ مِن ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

التَّناسُبُ الصَّوتيُّ راحةٌ لـلأذنِ وجمالٌ للنَّفسِ

مفعولُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ الياء المحذوفَةُ، وتقديرُهُ: فاتَّقونِي، ولهذا الحذفِ نُكتَتانِ:

الأولى: الاكتفاءُ بذِكرِه قبلُ في ﴿وَإِيَّىَ﴾ مع عاملِهِ المحذوف.

والأخرى: حسنُ تَناسبِ فواصلِ الآيِ[2]؛ فإنَّ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أنسبُ للفَواصِل الّتي قبلها وبعدها مِن إثبات الياء فيه (فاتَّقونِي)، وهو مظهرٌ لفظيٌّ تحسينيٌّ تابعٌ للمعنى.

مُناسبةُ الفَواصِلِ القُرآنيَّةِ لآياتِها:

تَناسُبُ مَقاطِعِ الآيـاتِ مَـعَ مَطالِعِها

خُتِمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الّتي قبلها بقوله سبحانه: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ لمناسبة كلٍّ خاتمةٍ للآيةِ الّتي وردَتْ فيها، ووجهُ ذلك: أنَّ اللّه ﷻ لمَّا رغَّب بني إسرائيل في الوفاء بالعَهدِ بقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ ونهاهم عن تركِ ذكرِ النِّعمةِ ناسبَه ختمُه بالتَّرهيبِ على طريقة القرآن الكريم في جَمعِ المتقابلات، ولأنَّه أخفُّ يجوزُ العَفْوُ عنه لكونِه معصيةً[3].

أمَّا الآية الّتي بعدها فإنَّه سُبحانه لمَّا أمرهم ونهاهُم بقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، وكانت حقيقةُ التَّقوى موافقةَ خطاب الشَّرعِ في الأمر فِعلًا وفي النَّهي تركًا، ناسبَهُ خَتمُ الآية بالأمر بها[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/212.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/404.
(3) السمين، الدر المصون: 1/320.
(4) سعد عبد العظيم محمَّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 93.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّعْمة والنَّعْمة:

في الفرقِ بينَهما وَجهان:

الأول: -حكاه النَّضر بن شُمَيل- أنَّها بكسر النُّونِ: في المُلْكِ، وبفتحِها: في البدَنِ والدِّين.

والثاني: أنَّها بالكسرِ: مِن المِنَّةِ؛ وهو الإفضَالُ والعطيَّة، وبالفتح: من التَّنعِيم؛ وهو سَعَةُ العيشِ والرَّاحة [1]

الرَّهْبَةُ وَالخوْفُ:

بين الرهبة والخوف عمومٌ وخصوص مُطلقٌ؛ فالرَّهبةُ أخصُّ مِنَ الخوف، وذلك أنَّ الرَّهبةَ خوفٌ مع أمرٍ زائدٍ، وهو التَّحَرُّزُ مِنَ المخوفِ، ومِن التَّحرز مِنهُ: الإمعانُ في الهربِ مِنَ المكروهِ، وإذا تعلَّق ذلك باللّه تعالى كان الهرَبُ مِن اللّه تعالى إليه بالعَمَلِ بما يُرضيه.

وزاد أبو هِلالٍ فرقًا آخرَ؛ وهو أنَّ الرَّهبةَ طولُ الخوفِ واستمرارُهُ، ومِنهُ سُمِّي الرَّاهبُ بذلك؛ لأنَّه يُديمُ الخوفَ[2].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/138.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 261.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»